تجربة الموت في شعر نور الدين درويش
(قراءة في ديوان مسافات)

أ. حنان بومالي
المركز الجامعي ميلة

ملخص:

يتناول هذا المقال إحدى أهم الظواهر التي يتميز بها الشعر العربي المعاصر وهي "الموت" الذي فرضته الظروف والأزمات التي مر بها العالم العربي منذ الحرب العالمية الأولى، ومادام الشعر الجزائري المعاصر فرعا من أصل وامتدادا للحركة الشعرية الحديثة في الوطن العربي ومر بالظروف نفسها أو أشد منها، فإنه لا تخلو دواوينه من هذه الظاهرة، ويعد نور الدين درويش نموذجا حيا للشاعر الجزائري الذي جمع في كتاباته بين صفات الشاعر المتألم لآلام الجماهير، والمناضل السياسي ذي المبادئ الثابتة والإرادة الحديدية، وبخاصة في ديوانه الثاني "مسافات" الذي يعكس تجربة الموت عنده وعند غيره من المثقفين الجزائريين الذين يكتبون على حد الشفرة.

كان المشروع الحداثي في الجزائر يتغذى من الأطروحة الثورية هذه الأطروحة الواقعية الوطنية التي لم تكن شعارا فحسب، بل كانت حقيقة ومشروعا وقعه الجميع، فكان حصاد الحداثة وفيرا، وكانت العلاقة بين الأشكال الأدبية علاقة تعايش على خلاف الأدب المشرقي الذي كان يعيش حربا خفية بين الشكل والمضمون، استمر هذا التعايش إلى حين هيمنة الهم الأيديولوجي على الهم الجمالي، وخيل للجزائريين أن الحداثة هي القصيدة الحرة فتراجعت شعرية الشاعر الجزائري إلى أن وقعت المحنة السياسية في السنوات الأخيرة وكان لها صداها في الشعر الجزائري.

أنجبت هذه المحنة شعرا جزائريا يتغذى من الأزمة، وتجربة إبداعية تؤمن بالشراكة والتعايش بين الأشكال، رفع لواء هذه التجربة الجديدة نخبة من الشباب الباحث عن الهوية والساعي إلى التجديد والتنوع، والمؤمن بالاختلاف الذي يؤدي إلى التطور والحوار والحداثة فحقق للقصيدة الجزائرية كثيرا من التطور خاصة في البناء الفني ومنح للشعر الجزائري خصوصيته التي تميزه عن غيره.

غير أن هذه التجربة الشعرية الشابة لم تنل حقها من الاهتمام، و لم تحظ بالمتابعة النقدية إلا عبر صفحات جرائد محلية وقليل من المجلات العربية، و"نور الدين درويش" واحد من أبناء هذا الجيل الجديد الذي يمتح من الأزمة ويكتب على حد الشفرة إن ضاقت عنه الأوراق وهذا الفضاء الممتد، ويلاحظ المقبل على قراءة نور الدين درويش في ديوانه الثاني "مسافات" أن فيه محاولة لاستفزاز كتاب النقد كي يفتحوا عيونهم على أراضي شعرية لا تزال بورا بدل الحرث في أرض محروثة، فيقول في مقدمته لهذا الديوان: «اعتاد من نسميهم نقادا عندنا السفر إلى المدن المعروفة كما اعتادوا

واستعذبوا السباحة في الشواطئ المحروسة ... بينما نرى عزوفا شبه كامل عن دراسة أعمال إبداعية لم تدرس من قبل...»[1]

ومما يلاحظ على هذا الديوان أيضا والذي تغلب عليه قصائد "التفعيلة" على قصائد الشكل الخليلي، أنها تعكس واقع القصيدة الجزائرية المعاصرة من حيث امتلاؤها بشحنة الأزمة الجزائرية وخساراتها في السنوات الأخيرة للعشرية السوداء، كما قد يقف القارئ على ثيمة بارزة في "مسافات" تكتسح القصائد الثلاث عشرة وهي "ثيمة الموت" التي اختلف مفهومها من قصيدة إلى أخرى ومن مقطع إلى آخر داخل القصيدة الواحدة.

ولا عجب في هذا لأن الشاعر المعاصر كان قدرا له أن يحدق بالموت تحديقه بالحياة ضمن رؤية شاملة تحاول الإحاطة بالوجود بكل مظاهره، فلم تعد أشكال الحياة أمامه ألوانا مختلفة يستقل بعضها من بعض وإنما تتمازج فيها الألوان لكي تصنع الصورة العامة[2]. وإذا كان الوجود الإنساني انطلاقا إلى الموت فمقاومة هـذا الانـطلاق تكون بإحدى الطرق التالية فأما الأولى فهي الأمل، وأما الثانية أساسية وهي الحب، وطريقة ثالثة أكثر أساسية منها وهي الكلمة الشعرية.

هذه الأخيرة هي الطريقة التي استعملها الشاعر العربي منذ القديم، أما الشاعر المعاصر فقد اتسع مجال رؤيته واكتسب نوعا من الشمول فاتحد لديه معنى الحياة والموت، وتتولد رؤية الموت عنده من خلال طاقته الانفعالية، ومن ثم يتكون في حياة

---

[1]- نور الدين درويش: ديوان مسافات، ط2، مطبعة جامعة منتوري: قسنطينة، 2002، ص 6.5.

[2]- محمد العبد حمود: الحداثة في الشعر العربي المعاصر "بناها ومظاهرها"، ط1، الشركة العالمية للكتاب: بيروت، 1991، ص 295 296.

الشاعر الانفعالي مثلث من القيم زواياه الثلاث هي: الانفعال والشعر والموت «فالشاعر يحب الانفعال لأنه يؤدي إلى الشعر على أنه يلاحظ أن الانفعال هو الموت، لأن الأول طريق محتم للثاني.

ومن ثم تبدأ مرحلة من الغرام بالموت نفسه تقابل الغرام بالشعر حتى تصبح الألفاظ الثلاثة في معنى واحد مرحلة ينعدم فيها الطريق بالغاية، وحتى ينتهي إليها في وحدة متينة لا انفصام لها»[1] ويظل الشعر أكثر الفنون ارتباطا بالموت، لأن الشعر يرينا جوهر الأشياء لا ظواهرها، ويذهب بأهم أدوات التعبير بعيدا عن وجهها الذي نطالعه مباشرة عند القراءة.

وإذا كان الإنسان مسكونا بهوس الموت، يفكر وهو في أنضج حالات وجوده فيه بوصفه وجها مقابلا يخيم على سمائه ويحاصره في كل نفس ولحظة، بل يهدده بالمفاجأة التي يجهل زمانها ومكانها فإن الشاعر أكثر إحساسا بقضية الموت والفناء، لأنه أكثر تأملا في الوجود والعدم يستبطن الأشياء ويتغلغل فيها بحثا عن حقيقتها، ويتابعها وهي في أوج حركتها ودمومتها، إنه يكسر الحاضر الآني منطلقا إلى الآتي[2] .

من هذه الزاوية تتراءى لنا تجربة الموت في شعر "نور الدين درويش" من خلال ديوانه "مسافات" الذي كان فيه الموت بارزا، وبأشكال مختلفة مما جعل قصائده بهذا الشكل «ساحة يصطخب فيها الجدل بين عناصر الثبات وعناصر الحركة، ساحة تفنى فيها عناصر وتتخلق عناصر أخرى غيرها، وتتخذ فاعلية العناصر المتولدة بمقدار ما

---

[1]- نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر، ط1، دار العلم للملايين: بيروت، 1962، ص315.

[2]- عبد الناصر هلال: تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر، ط1، مركز الحضارة العربية: القاهرة، 2005، ص 16.

تقتنص من رؤى ومقدار ما تحتوي من إمكانات الكشف وطاقات التغيير»[1] وللظرف الاجتماعي والسياسي الذي عاشه الشاعر دور في خلق هذه التجربة أو بمعنى أدق كان ديوانه الشعري مشروع محاورة وتفاعل وتجاوز للظرف الموضوعي أو الواقع الراهن.

وإذا كانت البنية الكلية للقصائد تظهر في البنية الدلالية لكل قصيدة على حدة وما تحويه من ثيمة الموت، فإنه يفتتح هذا الديوان بقصيدة تحمل المصطلح، لكن بدلالات أخرى غير الدلالة المعروفة له، وهي بعنوان "هي لن تموت"

حيث إنه نفى الموت عن حبيبته لأنها خالدة في فؤاده وفي دمه، وسيعيش على ذكراها إن غابت عن عينيه وما دامت كذلك فهي لن تموت ولهذا يكرر المصطلح في ختم القصيدة تأكيدا لذلك:

فضلت بعد غيابها المر السكوت
سأعيش بالذكرى
بأغنيتي القديمة لن تموت
هي في فمي
هي في الفؤاد وفي دمي
هي لن تموت
هي لن تموت[2].

يصدر الخطاب الشعري أيضا بصيغة النفي في قصيدته التالية لهذه القصيدة والتي يصور فيها تجربة الموت بالشكل نفسه، وهو عدم الموت وحب الخلود رغم كل

---

[1]- اعتدال عثمان: إضاءة النص، ط1، دار الحداثة: بيروت، 1988، ص 172.

[2]- نور الدين درويش: المصدر السابق، ص 13.

الظروف والصعاب التي تواجهه وصديقه، فالموت يقترب منهما إلا أنه لا يفتك بأرواحهما:

تطول المسافة
يقترب الموت.
لا تسأل النحم والرمل.
تطول المسافة،
نسقط كالتمر
لكن أرواحنا لا تموت[1].

في ظل الظروف السياسية المتأزمة التي يعيشها وصديقه وكل المحتجزين لم تتحول رؤى الأشياء عنده إلى موت، بل إنه يصر على الصمود والخلود وتكأن الموت هو الرؤية الخاصة التي تفسر وجوده في رحاب الصراع، وفي ظل مرحلة حديدة من مراحل الانهيار السياسي الذي ينشر أشرعته في كل حدب، حتى إنه لا مسرفأ الآن يحتميان به، بل إنهم في عزلة عن جميع البشر.

وهو المعنى الذي يتوسع فيه في قصيدة أخرى محاولا التخفيف على نفسه من وطأة هذه الظروف التي جعلت الجميع في مستوى واحد، وبشكل واحد يتفقون وينطلقون وينامون ويجوعون معا وحتى الموت يتمنون لو يموتوا معا:

---

[1] – المصدر نفسه، ص 23.

أذكر الآن كنا معا،
اتفقنا انطلقنا معا،
أذكر الآن جعنا معا
وعلى الأرض نمنا معا
ينبغي أن نظل معا
أو نواصل حتى النهاية،
أو نموت معا[1].

إن هذه المشاركة في كل شيء، ولدت لديهم رغبة في تجاوز الأمور الغيبية و هو الموت الذي لا يعلم أحد متى أجله أو بأي أرض يموت، فكان الإحساس بالهم الوطني دافعا و مرتكزا أساسيا في تجربة الموت عند الشاعر الذي عايش الحدث بوعي تام، وحاول فهمه و الإحاطة به من جوانبه المتعددة.

تتوقف لديه كل العوالم المشرقة، لأن خلانه خانوه بعد انطلاق الرصاص واشتداد الأزمة وارتفاع الصراخ من كل ناحية، فيواصل المسير وحده وقد بيع دمه إلى صاحب القبعة، ولم يبق إلا الظلام المفزع الحالك المخيم على غرفته معبر الداخلين والخارجين إلى الحلم، فيفضل الموت وحيدا بعد أن تعب من وجع الجراح:

لكنني أيها الأصدقاء
دخلت وحيدا
ومت كثيرا

---

[1]- نور الدين درويش: المصدر السابق، ص 28-29.

و لم تدخلوا المعمعة
أفقد ختنم النبض،
بعتم دمي في الخفاء إلى صاحب القبعة
صحت في حلكة الليل .
ناديت ناديت[1].

بهذا يكشف الشاعر أوراق الموت من خلال مفردات "الوحدة، الخيانة، الصياح" التي خلقت أفقا معتما وواقعا عدميا، تنمو في أرضه الكآبة، ويغطي الحزن قسماته إلا أنه يصر على مواصلة المسير، لأنه مؤمن بأن قضيته عادلة ومطلبه شرعي:

سأضل هنا
سأواصل وحدي المسير،
لن تنحني أغنياتي ولن أركع
سجلوا في دفاتركم
أكتبوا
قسما
أبدا
لن أخون دم الشهداء
لن أخون الجزائر والصومعة[2].

---

[1]- المصدر نفسه، ص 29-30.

[2]- نور الدين درويش: المصدر السابق، ص 33.

إن الشاعر لا يتذرع بالصمت لكي يخفي جهله بالثورة والشهداء، إنه ينشد الأدب التقدمي الثوري المعبر عن هموم وآمال الطبقات المسحوقة في المجتمع.... مؤمنا بقداسة الكلمة ودورها الفعال في إيقاظ الضمائر من سباتها والعقول من حصارها الفكري المغلوط ولا غرو في أن يكون كذلك لأن «الحركة الشعرية الجزائرية الشابة أكثر التحاما، وأصدق تعبيرا عن طبيعة المرحلة، أي مهام مرحلة البناء الوطني وعن القضايا التحررية في الوطن العربي والعالم، تماما مثلما فعل أدباء الثورة التحريرية الذين عبروا بصدق الشاعر وحرارة الثورة التي عاشوا وسط انفجاراتها المتوالية»[1]

يتكرر الموت عنده في القصائد الأخرى من الديوان، لأن مشكلة الموت ترتبط بمفهوم الزمن وعالم المتغيرات، فكل ما يحيط بالإنسان في تغير مستمر تشرق الشمس وتغيب، وتعصف الريح وتهدأ، تفيض الأنهار وتجف وتنمو البذرة لتصير نبتة، وكل يبدو ليختفي ثم يبدو الإنسان ميلاد فشباب فكهولة فشيخوخة فموت[2]، وهذا العالم من المتغيرات والعواصف التي تهب لعرقلة الشاعر والحيلولة دون قوته وتحديه، بل إنه لا يخاف الموت الذي يلاحق الإنسان من الميلاد إلى الشيخوخة:

متـــقابلين، أصـــيح ذا وطنـــــي ... فتهب عاصفة لعرقلتـــــــــي .
وعلي أن أحمـــيك يا قـــــــدري ... أنا مرغم على خوض معـــــركتي.
صـــدري فـــداك، تشجعي ابتسمي ... أنا لا أخاف الموت فاتنتـــــــــي.

---

[1]- محمد زتيلي: فواصل في الحركة الأدبية والفكرية الجزائرية، ط1، دار البعث: قسنطينة، 1984، ص 63.

[2]- حنان بومالي: الاغتراب في شعر بلند الحيدري، مذكرة ماجستير، قسم اللغة العربية: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية 2008، ص 88

لم ترحفـــين ؟! ألســـت مؤمنـــــة أنا بعت دنياي بآخرتـــــــــي[1] .

وإذا كانت قوى الكون والطبيعة معادية ومتربصة للشاعر، فإن حبه للوطن أكبر من هذه القوى كلها لأنه ينهل من نبع العشق الصوفي المتوهج إلى حد الفناء في هذا الوطن الذي باع من أجله دنياه بآخرته، ويرسم حدوده على خطوط الطول والعرض الورقية، ويبسط أرضه ويرفع سماءه، ويشكل تضاريسه ويغتال عاطفته بحثا عن حريتهما معا:

أدمنت حبك، هو ذا خطئـــي وعلي أن أغـــتال عاطفتـــــي
أنا واثق من حبك ابتعـــدي وثقـــي بأنـــك مطـــلق الثقـــة
أنا ذاهب، لا تحزني ابتســـمي لا تمســـكي بيدي معذبتـــــي
أنا كي أنا أحميك يا أملـــي أرخـــو امنحيني بعض حريـــتي[2] .

لما كان الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي أحس الموت وأدرك أن المجيء إلى العالم ليس نزهة فأخذ يطمح في البقاء ويبحث عنه، ولكنه كان يهزم دائما أمام مصيره ويقف عاجزا غريبا حزينا[3]، فإن درويش الذي كان الموت بارزا في قصائده يطمح في هذا البقاء ويبحث عنه، فتطالعنا قصيدة أخرى له تحمل المصطلح ولكن بصيغة النفي وهي " لم أمت " التي يؤكد فيها أنه ما مات ولكن الموت أخطأه:

---

[1]- نور الدين درويش: المصدر السابق، ص 48.

[2]- نور الدين درويش: المصدر السابق، ص49.

[3]- خليل الموسى: بنية القصيدة العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب: دمشق، 2003، ص 166-167.

وما مت ...
لكنه الرعب يسكن قلب القذيفة
أخطأني الموت،
تلك الشرارة في مهدها انطفأت ...
أولد من رحم الموت.
فأقرأ على جسدي آية الخلد.
تهيأت للموت،
أسكب جحيمك إني تهيأت للموت[1].

إن الشاعر لا ينفي الموت من منطلق عدم إيمانه به وإنما لأنه يؤمن بأن موته في سبيل الحق واستشهاده من أجل وطنه الذي يسكن شرايينه ويحاصره حبه من كل ناحية، هو حياة أخرى في جنة الخلد، ولهذا فميلاده يبدأ من رحم الموت وهو يتهيأ لها لأنه متشوق لما بعدها، ويهيأ كل شيء لاستقبال هذا الموت المنتظر، طفله الموزع بين المدينة والريف وبيته وكل العصافير وكل الخيول وقافلة الفجر التي ستقوده إليه حتما.

يتراءى لنا من هذه القصيدة أيضا حصار الموت الذي ينتشر في كل بيت من أبياتها فيكشف عن حضوره والامتلاء به، فتتحول القصيدة بذلك إلى ميراث لعالم يحتضر أو عالم ينتشر فيه الموت بكثرة:

---

[1]- نور الدين درويش: المصدر السابق، ص 60-61.

يحرضنـــــي كبريـــــائي
وتدفعني صرخة في القبور
أنـــا الميت الحـــــــي،
لازمني الموت أثناء بعثي
وأثنـــــاء موتـــــــي
مت أكثـــــر من مـــرة
كان موتي بطيئا بطيـــئا
ومثلـــي أنا لا يزول[1].

صحيح أن هذه القصيدة لا تكشف عن رفض الموت في تعليقها على ما يحدث ولا تتوقف عن التمرد على الموت الذي ينتشر كالهواء في كل شيء، ولكن رفض الموت والتمرد على حضوره الطاغي إثبات لهذا الحضور، وتأكيد لعلاماته الكثيرة في هذا العالم المستكين. ولا شك في أن هذا التفكير بالموت يرتبط بكثير من السوداوية والقلق ثم إن البيئة والعصر من العوامل الهامة في تفاوت الشعور بالموت بين ارتفاع وانخفاض، فلكل عصر فلسفته حول القضايا والأحداث بما فيها القضايا الحضارية والكونية[2]. وفلسفة الشاعر قائمة على المحنة التي تمر بها الجزائر في التسعينيات زمن كتابته لهذه القصائد وهذا ما تستبينه في خطابه الشعري في هذه القصيدة عندما يخاطب الدم قائلا:

---

[1]- نور الدين درويش: المصدر السابق ص 62-63.

[2]- ماجد قاروط: المعذب في الشعر العربي، اتحاد الكتاب العرب: دمشق، 1999، ص 159.

دمي ....
أيها النازف المستميت استعد لتوديع هذا الجسد
دمي ...
أيها الشاهد العـــــدل حلفتك الآن بالله فاشـــهد
على غربتـــــي وضيـــــاع البلـــــد.
دمي ...
كلما صحت جاوبني الظل: وحدك تبحث عن نجمة
لا ســـــــواك هنـــــــا،
لا أحـــــــد[1] .

تتجلى في هذا المقطع الفلسفة التي يبني عليها أشعاره وهي التعبير عن محنته ومحنة كل الجماهير حيث يتلاشى كل شيء و الفناء هو الحضور والعدم هو الوجود، ويتحد الشاعر مع كل ما حوله ليفجر صلابته أمام الموت خصوصا أنه يستشعر قربه وحتميته، وينظر الشاعر إلى الموت نظرة ميتافيزيقية وإن بقيت في حدود الأمل والتساؤل عن الغد المجهول فيقول:

أماه أين جريمتي ؟..
وأنا المصـــــادر فـــــي الحضـــور وفـــــي الغيـــــاب
أماه... أنياب الليوث إلى أفضل من هوان يستحيل غدا عذاب
إني أفضل أن أنام على التراب،

[1]- نور الدين درويش: المصدر السابق، ص 66-67.

وأفضـــل الموت البطيء على التشبـــث بالســـراب[1].

قاده يأسه من هذا الوضع الذي يعيشه وحالة الاستلاب التي يعانيها إلى تفضيل الموت على التشبث بالسراب وانتظار الغد الذي يستحيل لا محالة إلى عذاب وهوان وذل ما بعده ذل، وربما اتخذ الموت عنده مفهوما ثوريا يتعلق بالشهادة والشهداء:

وأنا المقـــــاوم
كيف أصبر... أنت آخر صرخة بفم الشهيد
ما زلت أذكر...
كنت أركـــض فـــي المـــروج،
كنت أسأل كيف يمكنني التسلق في الجدار بغير سلم.
وعيون أمي واجمه
لك أم لنفســـي أكتب الآن القصيـــدة،
أرسل الآن العزاء
لك أم لنفسي...
أم أعزي خفقة القلب البريئة والهوى والأصدقاء[2].

يتساءل عن كل شيء حوله وكيف خيم الحزن وحطم الإحساس بالرضا والقبول حتى أصبح العزاء سجنا والرغبة في الحياة مملولة، يدفع إليها السأم لأن « الحياة

---

[1]- المصدر نفسه، ص 73.

[2]- المصدر نفسه، ص 83-84.

و الموت ليسا إلا وجهين لتجـــــربة واحدة هي تجربة الســـأم، السأم هو الحقيقة وفي ضوئه نستطيع أن ندرك معنى الحياة والموت على السواء. »[1]

فالسأم إذا أحد عناصر الموت وهو المقدمة التمهيدية إلى المصير البشع، والأدهى أن المقدمة أكثر بشاعة من النتيجة، غير أنه يتخذ شكلا آخر عندما ينظر إليه من زاوية التضحية وخلود الفكرة بعد الموت:

منذ البداية كنت أعرف أننـــي
سأخط بالدم والدموع قصيدتي
وأموت فـــــي الشطر الأخير
في الشارع المهجور أسئلة مريرة
أيا قلب إن دمي يسيل
فاكتب به موتي
الآن يمكنني الرقاد[2]

إن الشاعر يعتز بموته ويطمئن نفسه بأنه يمكنه الرقاد، فموته سيبقى صرخة الإنسان في كل مكان وفي كل شارع وصورة في كل مدينة وفي قلب كل إنسان يعرف معنى التضحية من أجل الوطن ومن أجل عيش وهناء الآخرين، غير أن هذا التمويه والاعتزاز الذي قام به درويش تجاه نفسه، وإقناعها بأن الموت مفخرة وشرف

---

[1]- عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ط3، دار العودة ودار الثقافة: بيروت، 1980، ص 271.

[2]- نور الدين درويش: المصدر السابق، ص 97-100.

إذا كان من أجل العدل والحق لم يلغ كون الزمن الذي يعيش فيه، هو زمن السأم وخواء الإنسان وموته، وهو أيضا زمن يضيع فيه الحق وتضيع الحقيقة:

آه يا زمن الضغينة
صار يكرهني صداي
وصارت الكلمات بعض جرائمي.
عبثا أحاول
صار يخشى أن يسايرني الصرير[1].

اختلت الموازين في هذا الزمن وتلاشت القيم، وأصبحت الحياة ميدانا تتداخل فيه قوى الخير والشر في الإنسان وصار صداه يكرهه والكلمات جريمة تقترف، وحين يتداخل الخير والشر تضيع الحقيقة وتختلط الأمور ويخاف

الإنسان من أقرب الأشياء إليه وحتى التي يمتلكها، ولقد حاول الشاعر الانتصار على هذا الزمن الذي يحاصره بكل أشكال المعاناة، عن طريق التشبث بالماضي ومد الجسر إلى المستقبل، وأصبح إيمانه بالتجدد والبعث طريقة إلى قهر الزمن والتغلب على الموت:

واستيقظ الحلم القديم ودب في الجسد الحماس
حتى متى ؟
وأنا أرواح في مكاني كالأسير.
ناديت فانزاح الستار ولاح ظل أبيض

---

[1]- المصدر نفسه، ص 107.

إني البراق
ركبت أه ركبت لا أدري لأي النجمتين أنا أساق
فرأيت في سفري النخيل ..
رأيت أنهارا وأزهارا وأكوابا دهاق
يا فرحتي
يا نجمتي ... حمامتي
وذابت الكلمات من حر العناق[1] .

انطلقت ذاته صارخة في وجه هذا الزمن التعس الذي تمثل فيه الحياة أكذوبة عريضة وحلقت في إطار خارج هذا الزمن فكان أشبه بالمصطفى -صلى الله عليه وسلم -ليلة الإسراء والمعراج، رأى النخيل والأنهار والأزهار وأكوابا دهاقا، فكانت فرحته عارمة حتى ذابت كلماته من حر العناق.

وينظر درويش إلى الموت من منظور آخر عبر جدلية الموت والبعث والعودة إلى الأصل وهو التراب، لأنه يؤمن بأن الإنسان خلق من التراب ويعود إليها لا محالة ففي قصيدته " حفنة من تراب " تتراءى لنا فلسفة أخرى للشاعر وهي اعتزازه بكونه حفنة من تراب صارت الأرض به معطفا، والتف نور الأمل لائحا، فانبهرت كل الأشياء حوله:

لا تنبذي الجسد المر أيتها الأرض
إني على موعد بالكتاب

---

[1]- نور الدين درويش: المصدر السابق، ص 108-110-112.

صارت الأرض لي معطفا
ها أنا...
حينما اخترقت جسدي الروح،
أسلمني شغفي للسؤال،
من أنا ؟
ما الترائب ما الترغ ما المنتهى ؟[1].

يطلب من الأرض ألا تنبذ جسده إذا وضع بالأرض لأنه مؤمن بأن لكل أجل كتاب، وقد بث عقيدته الإسلامية في هذه القصيدة التي هي ختام الديوان وختام تجربته مع الموت، فكانت صورة عاكسة لنفسه المتيقنة باعتبار الدنيا دار ممر إلى الآخرة دار المقر، كما أن استفهامه حول المنتهى ليس استفهاما حقيقيا وإنما فيه دعوة إلى تقبل الموت وهذا المعنى يكرره أكثر من مرة فيقول:

هرم الجسد المر يا فتنتي
إنني راغب في الإياب
فاتني كل ما فاتني.
ضاع مني الحساب[2] .

إنه يلح على العودة والإياب إلى أصله وهي الأرض (التراب) وله رغبة ملحة في ذلك، وهنا تظهر فلسفته الصوفية تجاه الموت الذي يمثل عندهم «انتقال الإنسان إلى حالة روحية خالصة أغزر علما من الحياة التي كان الإنسان يحياها بجسده، وقد تعرج

---

[1]- نور الدين درويش: المصدر السابق، ص 115-116.

[2]- المصدر نفسه، ص 126.

الروح وتخلد إلى الذات الإلهية فتغتبط ...»[1] وأقصى سعادة الشاعر أن يتمكن من جعل روحه تغادر جسده، ليسكن الجسد في التراب وتقترب الروح من الذات الإلهية وهو يتمنى لو تطول هذه اللحظات:

كان في داخلي النزع، لم أنته
حرقة الروح ...
أيها الزهر مني اقترب،
إن ضلعي اكتوى ...
واكتوى الجسد المر سال اللعاب.
ثم نادى المنادي وهيأت الأرض أحضانها[2]

لا شك أن هذا المفهوم الصوفي للموت هو الذي جعل تجربة المسافات «رؤية ورؤى وكانت، ولا شك ملامسة لوجدان كل متلقيها، مثيرة، مستفزة، موجعة، مؤلمة ساخرة مستشرفة لتجلي مضمونها بغاية الغابات منذ ظهور ما يعرف بالإنسان الكامل على مستوى فضائي: الزماني والمكاني في انتماء "درويش" ومرجعيته المتجذرة الباسقة، في هذا الكون يلوي عنقها أو يقتلع جذورها» [3].

هكذا يتعانق درويش مع "تجربة الموت" في مسافاته ليذرف من خلالها عبراته وينشر يأسه وحزنه العميق ويخفف من وطأة محنته ومحنة وطنه، ومن تحامل الزمن عليه

---

[1]- محمد العبد حمود: حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، ص 293.

[2]- نور الدين درويش: المصدر السابق، ص 121-122-124.

[3]- نور الدين درويش: المصدر السابق"المقدمة"، ص 10.

بماضيه وحاضره ومستقبله، وهو موت ناشئ عن اغترابه داخل وطنه وإحباطا ته وشعوره بواجبه وثوريته تجاه الوضع الراهن.

ونجد في هذا الموت المعنى الديني له، لأن الشاعر ينطلق من عقيدته الإسلامية ولأنه مشغول بمصير الإنسان وهو عنده مصير مظلم وحياته مقرونة بالثورة والشهادة من أجل حياة الآخرين ليرسم لهم طريق الغد المشرق، ولابد من صبح وإن طال الظلام، وما الموت إلا حالة نهائية منجزة على أرض الواقع المعيش، ولعل الجهل بالزمن خير من الوعي به، ومادام الإنسان لا يملك إزاء مروره مهربا فإن الوعي والجهل يلتقيان في النهاية عند خاتمة واحدة وهي العودة إلى الأصل وهي الأرض التي ولد الإنسان منها وفيها.

ولقد عاش درويش في مفترق الطرق في زمن المحنة الوطنية، وإذ استعصى التقدم في هذا المفترق الحرج، لم يبق سوى الارتداد إلى المنبع حيث تضيء وجوه الذكريات، وحيث يترعرع الشاعر في شريط الوطن الواسع مشكلا تلك المفارقة الطبيعية بين الحياة والموت في ظل الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشها لحمة شعره وسداه.

قائمة المصـــــادر والمراجـــــع

1- اعتدال عثمان: إضاءة النص. ط1. دار الحداثة: بيروت 1988.

2- حنان بومالي: الاغتراب في شعر بلند الحيدري. مذكرة ماجستير.قسم اللغة العربية جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.2008.

3- خليل الموسى: بنية القصيدة العربية المعاصرة. منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق.2003.

4- عبد الناصر هلال: تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر. ط1. مركز الحضارة العربية: القاهرة 2005.

5- عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية. ط3. دار العودة ودار الثقافة: بيروت. 1980.

6- ماجد قاروط: المعذب في الشعر العربي. اتحاد الكتاب العرب: دمشق.1999.

7- محمد العبد حمود: الحداثة في الشعر العربي المعاصر " بيانها ومظاهرها ". ط1. الشركة العالمية للكتاب: بيروت 1991.

8- محمد زتيلي: فواصل في الحركة الأدبية والفكرية والجزائرية.ط1. دارالبعث: قسنطينة. 1984.

9- نازك الملائكة: قضايا الشعر المعاصر. ط1. دار العلم للملايين: بيروت.1962

10- نور الدين درويش: ديوان مسافات.ط2.مطبعة جامعة منتوري: قسنطينة. 2002.